المعمار الأندلسي في عهد ملوك الطوائف
(دراسة تطبيقية على ما احتواه ديوان ابن حمديس الصقلي من وصف للمباني الأندلسية)

أ.خالد سالم المبروك غانم على عيسى رافع زيدان
كلية الآداب ـ قسم اللغة العربية ـ جامعة درنة
Khalidsalim1979@gmil.com Alizedan1983ly@gmail.com

الملخّـــص :

يُعد الوصف من الأغراض التي اشتهرت في الشعر الأندلسي، ولاسيما في عهد ملوك الطوائف، وستقوم هذه الدراسة بتسليط الضوء على وصف المباني الأندلسية في ديوان ابن حمديس الصقليّ، وهو أحد الشعراء الذين تميّزوا في هذا الغرض؛ بسبب ملازمته للملوك والأمراء، واتخاذه للمديح وسيلة لطلب الرزق، وهذا ما جعله يترك موطنه الأصلي في صقلية، ويقصد الأندلس، التي كانت من أكثر البلدان حضارة وازدهاراً وتشجيعاً للشعر والشعراء، وقد تميز ابن حمديس بدقة الوصف، إذ وصف جميع مظاهر الحضارة، والعمران الأندلسي، ومن أبرز موصوفاته التي أجاد فيها، واعتنى بجميع تفاصيلها، المباني، وفي مقدمتها قصور الأمراء والسلاطين، فقد وصفها من الداخل، وذكر ما يوجد داخلها من محتويات، كما وصفها من الخارج ووصف ما يحيط بها من حدائق ومنتزهات، كما وصف الدور والحصون والأبراج والحمامات والبرك والسواقي.

Abstract :

Yueadu alwasf min altakhsis aladhi takhusu alshier al'andilsi, walasiama fi eahd muluk altawayifi, wayastaqum hadhih aldirasat bitaslit aldaw' ealaa wasf almabani al'andalusiat fi diwan aibn hamdis alsaqli,

Wahu 'ahad alshueara' aladhin tanaqaluu fi hadha alhasadi; bisabab mulazamatih lilmuluk wal'umara'I, badhlatih lilmadih wasilat litalab alrazqi, wahadha mashadath 'usuluh al'asliat fi siqliyat, wayaqsid al'andals, alati kanat min 'akthar al'asnaf alhadariat walazdharaan waltashjie walshueara'a, waqad tamayaz aibn hamdis bidiqat alwasaf, hayth wusif jamie mazahir alhadarati, waleumran al'andilsi, wamin 'abraz mawsumatih alati 'abdieat fiha, waietanaa bitafasiliha, almabani, wafi muqadimatiha qusur al'umara' waljamaeatayni, faqad wasafaha min aldaakhila, wadhakar ma yujad dakhilaha min muhtawayatiha, kama wasafaha min alkharij wawasafaha ma yuhit min hadayiq wamuntazahatin, kama wasafaha waldawr walhusunbiraj walhamaamat walbarak. Walsawaqi.

المقدمـــــــــة :

كان الوضع في عهد ملوك الطوائف متناقضا، فمن الناحية السياسية كانت الأحوال أقرب إلى الانهيار؛ بسبب تشتت البلاد وتمزقها، وتحولها إلى مجموعة من الممالك الضعيفة، التي يتنازع حكامها من أجل بسط نفوذهم، وتوسيع ممالكهم. أما من الناحية الحضارية فقد كان الأمر مختلفا؛ إذ وصلت الأندلس إلى ذروة تقدمها في مجال البناء والعمران؛ بسبب التنافس الشديد بين الحكام، ومحاولة كل منهم إظهار نفسه بمظهر الحاكم القوي، وإظهار المنطقة التي يحكمها على أنها الأكثر ازدهاراً وحضارة وقد كان الحكام في حاجة إلى توثيق هذه الإنجازات والإشادة بها، وبمناقبهم .لذلك كان للشعراء في تلك المرحلة دور بارز، ومكانة كبيرة عند الحكام، الذين أجزلوا لهم العطاء، وقدموهم على غيرهم . وقد أعجب الشعراء بطبيعة الأندلس، بجبالها وسهولها وأوديتها وأنهارها وأزهارها، وأثنوا على هذه الطبيعة وبالغوا في وصفها، فقد تغنوا أيضا بما أبدعته يد الصانع من مظاهر الجمال، ونفائس العمران، خاصة المباني ومن أبرزها قصور الحكام والأمراء، التي بالغوا في تشييدها وتزيينها، وحولوها إلى تحف معمارية، وهذه القصور الشامخة الباذخة التي أبدعت يد الفن في هندستها وزخرفتها من الخارج والداخل، وتألقت في إنشاء حدائقها وكل ما يتعلق بها، هي التي كان تنافس الشعراء في وصفها وتصويرها أيام عزها، وفي رثائها والتفجع عليها بعد خرابها، وقد سلك الشعراء في وصفها طرائق شتى(1).وكان من أبرز شعراء تلك المرحلة ابن حمديس الصقلي، الذي عرف بعلاقته الوثيقة، وارتباطه الشديد بالمعتمد بن عباد، وتوثيقه لمنجزاته السياسية والعسكرية والحضارية، ومن تلك المنجزات التي وثقها بدقة القصور، فقد صور جمالها وقوتها وجودة بنائها وما تحتويه من مظاهر الحضارة والعمران، ولم يكتفِ الشاعر بوصف قصور بني عباد، فبعد سقوط دولتهم تنقل بين العديد من الأقاليم، مادحا حكامها، ومخلدا لمظاهر الحضارة من القصور والحدائق والتماثيل ، ولم يقتصر وصفه على القصور فقط ، فقد ألم بوصف أنواع مختلفة من المباني كالدور والحصون والأبراج والمساجد والأديرة والحمامات العامة، وقد تم اختيار هذا الموضوع لأنه يسلط الضوء على هذه المرحلة من تاريخ الأندلس، التي عرفت بأنها مرحلة بناء وازدهار ورقي حضاري، وسيكون الهدف من هذه الدراسة رصد ظاهرة وصف المباني عند ابن حمديس، والحديث عنها بالتفصيل، وجمع الأبيات التي تتحدث عن وصف المباني في شعره،

وتبدو أهمية هذا العمل في كونه وثيقة تاريخية، يمكن الرجوع إليها، لمعرفة تاريخ تلك المرحلة.

وقد اعتمد هذا البحث على المنهج التاريخي ، من خلال تتبع هذه الظاهرة في ديوان ابن حمديس، وقد تمت الإشارة إلى هذا الموضوع بطرق عابرة في دراسات سابقة، لكنها كانت إشارات عابرة ولم يحظ الموضوع بدراسة مستقلة وافية، باستثناء كتاب واحد هو وصف البرك والقصور في الشعر الحمادي لابن عدي نورية، فقد أشار المؤلف بشكل واضح إلى ابن حمديس، لكنه تحدث عن جانب واحد في وصف المباني، وهو وصف القصور، واستشهد عليه بقصيدة واحدة، ولم يفصل أكثر، إضافة إلى بعض الدراسات العامة التي اعتنت بالوصف ودورانه في الشعر الأندلسي، دون أن تقف على ابن حمديس وموصوفاته .

وتم تقسيم هذه الدراسة إلى أربعة اتجاهات:

الأول : يخص الشاعر، ويتحدث عن حياته وثقافته، وأثر البيئة في شعره.

الثاني: وصف تصاميم القصور من الخارج والداخل عند ابن حمديس.

الثالث: وصف ابن حمديس لموجودات القصور، وما يحيط بها من حدائق.

الرابع: وصف بقية المباني الأندلسية.

الاتجاه الأول ـ حياة ابن حمديس وثقافته وأثر البيئة في شعره:

أـ حيـــــاةُ ابن حمديـــس : هو أبو محمد عبد الجبار بن أبي بكر بن حمديس الأزدي الصقليّ، الشاعر المشهور، وقد قال ابن بسام في حقه : هو شاعـــر ماهر يفرطس أغراض المعاني البديعة ، ويعبّر عنها بالألفاظ النفيسة الرفيعة ، ويتصرف في التشبيه المصيب، ويغوص في بحر الكلم ، على درر المعنـــى الغريب (2) ، ولد عبدالجبار ابن حمديس سنة 447هـ ، من أصل عربي أزدي، وقد عاش والده أبوبكر بن محمد إلى ما قبل سنة 480هـ ، وكان فيما يبدو رجلاً تقياً، محباً للخير، وكان للشاعر عمة هاجرت هي وأبناؤها إلى سفاقس ، ومن أبنائها أبو الحسن الذي كان متطبباً مثقفاً، وقد وصفه ابن حمديس بأنه: " بقراط دون معرفة طبية وفكرة حسية" ، وأبو الحسن هذا تزوج أخت الشاعر، وقد كان لهذه النشأة أثرها في نفس عبدالجبار، فهومن عائلة محافظة، فيها وتر قوي من التدين، ووتر آخر من الثقافة الدينية والحكمية (3)

عالـــج ابن حمديس نظم الشعر وهو صغير، لكنه بقي خامل الذكر، ولما كان في ميعة الشباب استولى النـورمانديون على وطنه صقلية، وشاهد ما حل ببلده من

الخراب، وبقومه من العذاب، فأذكى ذلك فيما يبدو من شاعريته، لكنه ظل دائم الانقباض، كثير التشاؤم، رقيق الشعور(4) ، وقد ضاق الشاعر ذرعاً بما آل إليه حال بلاده، من فتن واضطرابات سياسية، فقرر الرحيل، وقد كانت الأندلس الخيار الأفضل له، لاسيما في هذا العهد (عهد الطوائف)، الذي كان للشعر والأدب والثقافة فيه مكانة كبيرة؛ بسبب تنافس الحكام، وطلبهم للشهرة ، وحين وفد ابن حمديس إلى الأندلس، نزل في رحاب بني عباد، وبقي في بلاط المعتمد ثلاثة عشر عاماً، مدحه خلالها بقصائد غر، واستطاع أن يزحم كبار المادحين المتكسبين (5)، وباتصاله بالمعتمد لمع كوكبه، وظل مبجلاً في خدمته، حتى أخذت تبين دولة المرابطين، وأزالت فيما أزالت ملك المعتمد؛ إذ عزله يوسف بن تاشفين ، الذي أذل إشبيلية، ونفاه إلى المغرب، فتبع ابن حمديس ولي نعمته إلى منفاه، ثم اتجه الشاعر إلى المهدية قاعدة إفريقيا، ثم صفاقس، فميورقة(6)

توفي ابن حمديس في شهر رمضان سنة سبع وعشرين وخمسمائة بجزيرة ميورقة ، ودفن إلى جنب قبر ابن اللبانة الشاعر المشهور، وكان قد عمي، وقيل مات في بجاية، وقد بلغ الثمانين (7)

ب.ثقافـــــة ابن حمديس : لعل أول عامل مؤثر في ثقافة ابن حمديس، هو نشأته الأولى في أسرة جمعت بين الالتزام الديني والإقبال على العلم، وهذا ما دفع ابن حمديس إلى الانكباب على العلم منذ صغره، فأبحر في القرآن، يتشبث بفيض بلاغته، وإعجاز آياته، ثم طاف في حدائق الحديث، واستظل بظلالها الوارفة، حتى إذا اشرأبت نفسه للغة نزل منازلها، وحط رحاله في بواديها؛ ليعرج على شاردها وواردها، ويأخذ من باب بلاغتها؛ ليروي ظمأ روحه المتعطشة، من بديع سحرها ورقة بيانها، ولطافة معانيها، فيحكيها بين دفتيه؛ ليخرجها بأبهى الحلل، وأجمل الصور(8)، وقد زادت ثقافته مع الأيام، وشملت فروعاً أخرى من المعرفة، مثل العروض والنحو والتاريخ وطبائع الحيوان، وزادتها التجربة عمقاً وصقلاً، حتى وجهت اهتمام ابن حمديس في المستقبل إلى شيء من التأليف، فكتب (تاريخ الجزيرة الخضراء)(9)

لقد ألم الشاعر بعلوم اللغة إلماماً كافياً، لكنه لم يكتفِ بذلك، بل اهتم- أيضاً - بسائر المعارف والعلوم المختلفة، كالفلسفة والطب والكيمياء وغيرها، فقد كان له نظرات وملاحظات تدل على أنه كان دقيق الملاحظة واسع الأفق، معنياً بثقافته وثقافة

عصره، على نحو من الإلمام السريع، الذي ينبغي أن يلم به الأدباء، الذين وقفوا حياتهم على الفن، وجعلوه بضاعتهم(10)

ج. أثـــر البيئة في شعر ابن حمديس: كان للبيئة أثرها الكبير في شعر ابن حمديس، بداية من صقلية التي ولد فيها، وقضى فيها سنوات عمره الأولى، وعلى الرغم من قصر المدة التي قضاها في الجزيرة، فقد كان لها أثر مباشر في تجربته الشعرية. ولعل أهم العوامل المؤثرة في شعره في هذه المرحلة جمال الطبيعة، فصقلية كانت من أجمل البقاع، وكان لهذا الجمال أثره الجلي في شعره، إضافة إلى عامل آخر أشد تأثيراً في شعره وحياته، وهو الغزو النورماندي لصقلية، وما مثلته من صدمة كبيرة، وفاجعة عظيمة، أنتجت آثاراً مباشرة في تجربة الشاعر، لعل أبرزها :

أولاً: أكسبته هذه التجربة بكاء وحناناً فلم تفارقه مرارة الذكريات، وأطياف أحلامها طوال عمره، ونجد هذا ماثلا في شعره بوضوح، ومنه قوله مصوراً ما ألم به من وجع وحزن:

أَسْلَمَنِي الدَّهْرُ للرَّزَايَا وَغَيَّرَ الحَادِثَاتُ قَفْشِي
وَكُنْتُ أَمْشِي وَلَسْتُ أعْيَا فَصِرْتُ أَعْيَا وَلَسْتُ أَمْشِي
كَأَنَّنِي إذ كَبِرْتُ نَسْرٌ يُطْعِمُهُ فَرْخُهُ بِعُشِ (ابن حمديس)

ثانياً : أكسبته هذه التجربة دقة الإحساس، وروعة الوصف، فكانت لديه شاعرية ثرية متدفقة (11) ، لقد غيرت هذه النازلة حياة الشاعر ونفسيته، مما انعكس على شعره، فتغيرت وجهته، وخرج به عن سابق عهده، يفتح أمام ناظريه آفاقاً نزلت به من فوق أجنحة الخيال لتحط في حقول الواقع، التي غرست تربتها ببذور الحزن والألم والفجيعة (12)، وقد ظلت صقلية ماثلة في قلب الشاعر وفكره، فلم ينسَ ذكرها، رغم ترحاله بين بيئات مختلفة، ومن نماذج ذلك قوله:

ألا فِي ضَمَانِ اللهِ دَارٌ بِنَوطَسِ وَدَرّتْ عَلَيْهَا مُعْصِرَاتُ الهَوَاضِبِ
أمثلها في خَاطِرِي كُلَّ سَاعَةٍ وَأمْرِي لَهَا قَطْرَ الدُّمُوعِ السَّوَاكِبِ
أَحِنُّ حَنِينَ النِّيبِ لِلْمَوطِنِ الّذي مَغَانِي غَوَانِهِ إلَيهِ جَوَاذِبِي
وَمَنْ سَارَ عَنْ أَرْضٍ ثَوَى قَلْبُهُ بِهَا تَمَنَّى لَهُ بِالجِسْمِ أَوْبَةَ آيِبِ (ابن حمديس)

كما كان للأندلس التي انتقل إليها تالياً عظيم الأثر في غرض الوصف، فقد امتازت الأندلس بطبيعة ساحرة وجمال فتان كما أن العصر الذي وفد فيه الشاعر على الأندلس (عصر الطوائف)، الذي كان عهد توهّـــج ونضج وإشعاع في الأدب والثقافة؛ ولذلك وجد الشاعر ذاته في هذا المجتمع، فأنتج قصائد تعد من أفضل إنتاجه الشعري، وهناك عوامل أسهمت في توهج الشاعر وشهرته، أهمها قربه الشديد من المعتمد بن عباد، الذي كان من أقوى حكام الطوائف، ولم يكن متذوقاً للشعر فقط، بل كان هو نفسه شاعرا مجيداً؛ لذلك كان له تقدير خاص للشعراء والعلماء والمثقفين، وعلى الرغم مما شهده عصر الطوائف من ضعف وتفرق على المستوى السياسي، فإنه كان من أزهى العصور وأرقاها على المستوى الثقافي والإبداعي، وقد انعكس هذا كله على إنتاج ابن حمديس، وخاصة في غرضي المدح والوصف.

الاتجاه الثاني ـ وصف تصاميم القصور من الخارج والداخل عند ابن حمديس:

يُعـــد غـــرض الوصف بشكل عام من أهـــم الأغراض التي تميّز بها شعراء الأندلس؛ بسبب ما حبا الله به هذه البلاد من طبيعة فاتنة ، وجمال أخاذ.

ومن مجالات الوصف المشـــهورة وصف القصور، الذي بـــرز في تلك المرحلة، لاسيما في عهد الطوائف، وقد أبدع الأندلسيون في هذا الغرض، فخلفوا وصفاً واقعياً لماحاً، يستوعب أكثر ما حول هذه القصور من نوافير وتماثيل ونقوش، يلقون عليها أحيانا بعض أحاسيسهم، ويبثون فيها روحا من عواطفهم، فإذا ذهبنا نلتمس الأسباب التي دفعت الشعراء إلى وصف القصور وجدناها في اهتمام ملوك الأندلس بالعمارة، واحتفالهم بمظاهر الأبهة (13)، وقد تعرض الشعراء في وصفهم للقصور لبنائها وزخرفتها، فوصفوا تصميمها من الخارج والداخل؛ إذ تناولوا أبهاءها ومجالسها وحماماتها وسجونها بالوصف وكل ما يحيط بها كحدائقها ورياضها وما فيها من برك ونوافير وتماثيل، فقد وصفوا كل شيء فيها؛ إرضاء لساكنيها، وحباً في الاقتراب منهم ومجالستهم (14)

ولم يكتفِ الشعراء بوصف تصاميم القصور من الخارج والداخل، بل زادوا على ذلك بوصف كل ما تقع عليه العين داخل تلك القصور.

وكان ابن حمديس من الشعراء الذين تميزوا في هذا المجال، وجمعوا بين وصف الطبيعة الحية والطبيعة الصناعية، كالبرك والتماثيل والرسوم (15)، وبحكم ملازمته للملوك والأمراء، واتخاذه المديح وسيلة لطلب الرزق، تطـــرّق ابن حمديس في

شعره إلى جميع مناحي حياتهم، بما في ذلك القصور والدور التي يسكنونها، وهو يعد من أبرز الشعراء في وصف القصور، يقول عنه صاحب نفح الطيب :(الحسن والإحسان يقادان في أرسان لعبد الجبار بن حمديس... ذي المقاصد الحسان خصوصاً في وصف المباني والبرك، فما أبقى لسواه في ذلك حسناً ولا ترك) (المقري)
ويمكن بيان هذا الوصف على النحو الآتي:

أ ـ وصف القصور من الخارج: تطرق ابن حمديس خلال وصفه للقصور لبنائها الخارجي ، فذكر علوها، وفخامتها، وقوتها، وإحكام بنائها، ومن ذلك مثلاً قوله في أحدها:

وَاعْمُر بِقَصْرِ المُلكِ نَادِيكَ الَّذِي ... أَضْحَى بِمَجْدِكَ بَيتُهُ مَعْمُورَا
قَصْرٌ لَو انَّكَ قَدْ كَحَلْتَ بِنورِهِ ... أَعْمَى لَعَادَ إلَى المقامِ بَصِيرا
وَلوَ انَّ بِالألْوَانِ قُوبِلَ حُسْنُهُ ... مَا كَانَ شَيءٌ عِنْدَهُ مَذْكُورَا
وَاشتقَّ مِنْ مَعْنَى الحَياةِ نسِمهُ ... فَيَكَادُ يُحْدِثُ لِلعِظَامِ نُشُورَا
أَعْيَتْ مَصَانِعُهُ عَلَى الفُرْسِ الأولَى ... رَفَعُوا البِنَاءَ وَأَحكَمُوا التَدْبِيرَا(ابن حمديس)

ففي هذه الأبيات يصف الشاعر جمال هذا القصر، الذي لو نظر إليه الأعمى لارتد إليه بصره من فرط جماله وحسنه، ويصف ايضاً جمال ألوانه، التي ميزته عن غيره من المباني، ثم يتحدث عن بنائه المحكم، الذي عجز الفرس أن يأتوا بمثله مع خبرتهم في التشييد والعمران، ويقول في وصف قصر آخر:

قَصْرٌ يُقَصّرُ وهو غَيْرُ مُقَصّرٍ ... عَنْ وَصْفِهِ فِي الحُسْنِ وَالإحْسَانِ
وَكَأَنَّهُ مِنْ دُرَّةٍ شَفَّافَةٍ ... تُعْشِي العُيُونَ بِشِدَّةِ اللَّمَعَانِ
لَا يَرْتَقِي الرَاقِي إلَى شُرُفَاتِهِ ... إلّا بِمِعْرَاجٍ مِنَ اللَّحَظَانِ (ابن حمديس)

يصف ابن حمديس جمال هذا القصر، الذي يستعصي وصفه على محاولات الشعراء، ذوي الباع في فن الوصف، ثم يشيد بلونه الذي يعشي العيون من شـــدة لمعانه، ثم يصف ارتفاع شرفاته، التي لا يرتقي الراقي إليها إلا بمعراج، ويقول واصفاً قصراً آخـــر:

وَيَا حَبَذَّا دَارٌ يَدُ اللهِ مَسَّحَتْ ... عَلَيهَا بِتَجْدِيْدِ البَقَاءِ فَمَا تَبْلَى

مُقَدَّسَةٌ لَو أَنَّ مُوسَى كَلِيمَهُ ... مَشَى قُدُمَا فِي أَرْضِهَا خَلَعَ النَّعْلا
نَسِيتُ بِهِ إِيْوَانَ كِسْرَى لِأَنَّهُ ... ارَانِي لهُ مَوْلى مِن الفَضْلِ لا مَثْلا
كَأَنَّ سُلَيْمَانَ بنَ دَاودَ لَمْ تُبِحْ ... مَخَافَتُهُ للجِنِّ في شَيدِهِ مَهْلا(ابن حمديس)

يضفي الشاعر على هذا البناء صفة القداسة والخلود، فقد شملته الرعاية الإلهية، وأحاطت به؛ لذلك وجب على كل من يدخله أن يخلع نعليه، إشارة إلى الوادي المقدس، الذي دخله موسى عليه السلام، فخلع نعليه، قال- تعالى - : ﴿**فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُـــوى**﴾ (16)، وقد بلـــغ هذا القصر من الفخامة أن الشاعر حينما رآه نسي إيوان كسرى، الذي كان بناء عظيماً في عصره، بل إن هذا المعمار الأندلسي فاق في جماله وعظمته وفخامته القصور التي بناها الجن لسليمان عليه السلام.

وصف القصور من الداخل:

وقف ابن حمديس عند المكونات الداخلية للقصور، فلم يترك كبيرة ولا صغيرة إلا وصفها، ومن أهم التفاصيل التي أظهرتها قصائده، والتي حظيت بعناية تصويره هذه المحتويات:

1ـ الغرف: ومن نماذج وصفها مثلاً قول ابن حمديس :

أَذْكَرْتْنَا الفِرْدَوسَ حِينَ أَرَيْتَنَا ... غُرَفاً رَفَعْتَ بِنَاءَهَا وَقُصُورَا
أَبْصَرْتُهُ فَرَأَيْتُ أَبْدَعَ مَنْظَرٍ ... ثُمَّ انْثَنَيْتُ بِنَاظِرِي مَحْسُورَا
فَظَنَنْتُ أَنِّي حَالِمٌ فِي جَنَّةٍ ... لَمَّا رَأَيْتُ المُلْكَ فِيهِ كَسِيْرَا (17)

يُشـــيد الشاعر بجمال هذه الغرف التي ذكرته بالفردوس، وما فيها من غرف، وقد بلغ جمال هذه الغرف وبديع هندستها المعمارية أن الشاعر حين وقع نظره عليها رجع إليه بصره محسوراً، في إشارة إلى قوله - تعالى- : ﴿ **ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ**﴾ (18)

2- الأبـــــــــواب: ومن أمثلة وصفه لأبواب القصور قوله:

وَمُصَفَّحِ الأَبْوَابِ تِبرَاً نَظّروا ... بِالنّقشِ بينَ شُكُولِهِ تَنظِيرَا
تَبدُو مَسَامِيرُ النضَارِ كما عَلَتْ ... فلك النُّهُودِ من الحِسانِ صُدُورَا
خَلَعتْ عليهِ غلائلاً ورسيّةً ... شَمسٌ تردّ الطَّرفَ عنه حَسيرَا(19)

في هذه الأبيات يرسم ابن حمديس صورة بديعة لهذه الأبواب، فهي قوية مصفحة منقوشة ومزينة بالذهب، وقد ثبتت بمسامير بارزة، فأشبهت نهود الحسان، وقد خلعت عليها الشمس ضوءها، فانعكس وهجاً لامعاً يرد بصر الناظرين إليها حسيراً، وهي الصورة التي أكدها لرسوخ حالة النور والضياء التي تعيشها تلك القصور.

3-الأســـــقف : من نفائس تلك القصور الأسقف ، المزينة والموشّاة بالرسوم والألوان، حتى لتبدو كالروض المزهـر، ومن بديع وصفها عند ابن حمديس ، قوله:

وإذا نظرت إلى غرائب سقفه أبصرت روضا في السماء نضيرا
وعجبت من خطاف عسجده التي حامت لتبني في ذراه الحوراء(20)

4-الصهاريج: وهي خزانات كبرى، تبنى داخل القصور، و تستخدم لتجميع المياه، ليستطيع سكان القصور التحصل على المياه بسهولة، دون الحاجة إلى جلبها من الخارج، ومن نماذج شعر ابن حمديس في وصفها:

وَتُرِيكَ في الصّهرِيجِ مَوقِعَ قطرِهَا فَوقَ الزَّبَرجَدِ لُؤلُؤاً منثورَا
ضَحِكَتْ محَاسِنُهُ إليكَ كأنّما جُعِلت له زُهرُ النُّجُومِ زُهُورَا(21)

5-الأبهاء: ومن أمثلة موصوفات ابن حمديس للأبهاء قوله في وصف بهو، رصفت ساحاته بالرخام:

بِمُرَخَّمِ السّاحَاتِ تَحْسَبُ أنّهُ ابن فُرِشَ المَهَا وتَوَشَّحَ الكَافُورَا
وَمُحَصَّبِ السَاحَاتِ تَحْسَبُ أنَّه مِسْكاً تَضَوَّعَ نَشْرُهُ وَعَبِير(٢٢)

ففي هذين البيتين يرسم الشاعر صورة لبهو، صممت ساحاته من الرخام ، وزينت باللؤلؤ، ووشحت بالكافور، وأحيط بالزهور زكية الرائحة، التي يعبق شذاها كالمسك المتضوع والعنبر، ففي دلالة على كثافة شجيرات الورود وتنوعها.

6ـ **التماثيل:** من مظاهر الجمال والترف في قصور الأندلس، وجود التماثيل، التي عالباً ما تنحت على شكل إنسان أو حيوان، وقد تطرق ابن حمديس في وصفه لهذه التماثيل، ومن ذلك مثلاً قوله في وصف تماثيل على هيأة أسود:

وَضَرَاغِمٌ سَكَنَتْ عَرِينَ رِئَاسَةٍ تَرَكَتْ خَرِيْرَ المَاءِ فِيهِ زَئِيرَا
فَكَأنمَا غَشِيَ النَّضَارُ جُسُومَهَا وَأَذَابَ فِي أَفْوَاهِهَا البِلَّورَا
أُسْدٌ كَأنَّ سُكُونَهَا مُتَحَرِّكٌ فِي النَّفْسِ لَو وَجَدَتْ هُنَاكَ مُثِيرَا

وَتَذَكَّرَتْ فَتَكَاتِهَا فَكَأَنَّما أَقْعَتْ عَلَى أَدْبَارِهَا لِتَثُورَا(23)

يصفُ الشاعــرُ تماثيل نحتت على شكل أسـود، في قصر أحد الملوك القصور، وخرج من أفواهها الماء، فتهيأ للشاعر أن خريرها تحول إلى لزئير يسبغ صفة الحياة على تلك الأُسدِ، وهي كما يقول غصة نضرة، يتلألأ بلّور أسنانها لامعاً، ويلتفت ابن حمديس للجانب الشرس في هذا الحيوان المفترس، فيصور لحظة انقضاضه التي تحدث فجأة، والتي أوضحت بها صورة إقعاء هذه الأسود ،
ويقول في وصف تمثال على شكل زرافة:

وَزَرَافَةٍ فِي الجَوفِ من أَنْبُوبِهَا ماءٌ يُرِيكَ الجَرِيَ فِي الطَّيرَانِ
مَرْكُوزَةٍ كَالرُّمحِ حَيثُ تَرَى لَهُ من طَعْنَةِ الحَلقِ انْعِطَافَ سِنَانِ
وَكَأَنَّهَا تَرمِي السَّمَاءَ بِبُنْدِقٍ مُسْتَنْبَطٍ مِن لُؤْلُؤٍ وَجُمَانِ(24)

يصف الشاعرُ تمثالاً على شكل زرافة، في جوفها ماء، ركّزت كالرمح، والماء يخـــرج من فيها نحو السماء، كأنه بندق من لؤلؤ أو جمان.
7-**النوافـــــير:** يكثر في القصور الأندلسية تشييد النوافير، فهي من مظاهر الجمال والأناقة، التي باتت ملازمة لهذه القصور، ومن نماذج شعر ابن حمديس في وصف النوافير:

كَم شَاخِصٍ فيه يُطيل تعجباً من دوحةٍ نبتتْ من العقيانِ
عَجباً لها تسقي الرياضِ ينابِعاً نبعتْ من الثَّمراتِ والأغصانِ
فإذا أُتيح لها الكلام تكلمتْ بخريرِ ماءٍ دائمِ الهمَلانِ
وكأن صَانعَها استبدَّ بصَنعةٍ فخرَ الجمادُ بها على الحيوانِ(25)

الاتجاه الثالث ـ وصف ابن حمديس لموجودات القصـــــور ومـا يحـيط بها من حدائق:

وصف موجودات القصور:

أفاض شعراء عصر ملوك الطوائف في وصف موجودات قصور حكامهم، فوصفوا الأثاث والآنية التي زخرت بها قصورهم، كوصف كأطباق الفضة و آنية الخمرة كالإبريق والكأس... و التحف ونفائس أخرى، كما أكثر الشعراء من وصفهم للشموع، التي كانت تضيء جميع أرجاء القصور ليلاً، وبعضهم وصف ما تحتويه هذه القصور

من أسلحة حربية، إضافة إلى وصف الخيول الرابضة في الإصطبلات المشيدة داخل أفنية القصور كذلك اشتملت قصورهم على إصطبلات الخيول، وقد تعرض بعضهم لو صف خيولهم(26)، وابن حمديس هو أحد شعراء هذا العصر، الذين أجادوا في وصف القصور، فقد وصف التماثيل وتدفق المياه فيها، والشمعة وذوبانها، وإرسالها الضوء من فتيلها، والساقية التي تدور بالكأس، فيبدع في كل هذه الصور والمحسوسات (27) ومن الموجودات التي وصفها ابن حمديس:

1ـ .**الشـــموع :** يقول ابن حمديس في وصف شمعة:

وَنُورِيَّةٍ للنَّارِ فِيهَا ذُؤَابَةٌ تَذُوبُ بِهَا ذَوبَ النّضارِ المُمَيَّعِ
تَنُوبُ مَنَابَ الشَّمسِ بَعدَ غُرُوبِها إِذَا بَزَغَتْ كَالشَّمسِ فِي رَأسِ مَطْلَعِ
تُكَتِّمُ ما تَلْقَاهُ إلا شَكِيَّةً تُعَبِّرُ عَنهَا فِي إِشَارَةِ إِصْبَعِ
كَسقْمِي وَإِيرَاقِي وصَبْرِي وَأَدْمُعِي وَصَمْتِي وإِطْرَاقِي وَلَونِي وَأَدْمُعِي(28)

يصف الشاعر شمعة تركت النار أثرها عليها وكأنها في صفائها وقوة إضاءتها تنوب مناب الشمس، وشبه هذه الشمعة بحالته في المرض ونزف الدموع والصبر والصمت وشحوب اللون ، ويقول في وصف شمعة أخرى:

قنَاةٌ مِنَ الشَّمعِ مَركُوزَةٌ لَهَا حَرْبَةٌ طُبِعَتْ مِنْ لَهَبْ
تُحَرِّقُ بِالنَّارِ أَحْشَاءَهَا فَتَدْمَعُ مُقْلَتَهَا بِالذَّهَبْ
تَمَشَّى لَنَا نُورُهَا فِي الدُّجَى كَمَا يَتَمَشَّى الرِّضَى فِي الغَضَبْ
عَجِبْتُ لآكِلَةٍ جِسْمَهَا بِروحٍ تُشَارِكُهَا فِي العَطَبْ(29)

2- مجامـــــرالبخور: انتشرت مجامر البخور في القصور الأندلســـية، كمظهر من مظاهر الزينة، إضافة إلى الروائح الطيبة التي تصدرها، ومما قاله ابن حمديس في وصف إحداها:

ثَلاثَةُ أَفْلاكٍ عن العَينِ مُضْمَرَهْ تَدُورُ إِذَا حَرَّكْتَهَا فِي حشَا كرهْ
وللفلكِ النَّارِيّ منهن كَفَّةٌ تَرَى النَّارَ فِيهَا للبَخُورِ مُسَعَّرَهْ
وَتُبْدَي دُخَانَاً صَاعِداً مِنْ مَنَافِسٍ مُصَنْدَلَةٍ أَنْفَاسُهُ وَمُعَنْبَرَه (30)

يشبه الشاعر المجمرة بالفلك في حركته وإضاءته، ويصف رائحة الدخان الخارج من منافسها، فهو مزيج من رائحة الصندل والعنبر.

3-الفـــرش : تناول ابن حمديس في موصوفاته السجاد والبسط الممدودة في غرف القصور وقاعاتها وممراتها، وهي منسوجة من فاخر الأقمشة، ومن ذلك قولـــه في القصيدة السابقة:

تَمُـــرُّ عَلَى فرشِ الحَرِيرِ وَغَيرِهَا وَرَاءَ حِجَابٍ وهي غَيرُ مُؤَتِّرَهْ (31)

4-الأوانـــــي : من المقتنيات التي ازدحمت بها القصور والتي انتشرت وكثر ذكرها الأواني، خاصة الأواني المرتبطة بمجالس الشرب كالكأس والإبريق، ومن نماذج وصفها عند ابن حمديس قوله:

كَأنَّما الكَأسُ طَلَا مغْزَلٍ مرويةٍ بالدّرِ منه التّيَاح
كَأنّما الإبْرِيقُ فِي جِسْمِهَا يَنفُخُ للنَّدمانِ رُوحُ ارتِيَاح(32)

5-الآلات الموسيقية : لقيت الآلات الموسيقية حضوراً كبيراً في الأندلس، وكان لمجالس الطرب التي تقام في قصور الملوك نصيب وافر من هذه الآلات، وقد وصف ابن حمديس بعضها، كقوله في وصف العود مثلا:

فِي حجرِهِ أجْوَفٌ لهُ عُنُقٌ نِيطَتْ بِظَهْرٍ تَخَالهُ حَدَبَهْ
يَمُدُّ كَفّاً إلَيهِ ضَارِبَةً أعْنَاقَ أحزَانِنَا إذا ضَرَبَهْ
تَحْسبُ لَفْظاً بِأُخْتِهَا نَغَماً وَيُودِع المِسْمعَينِ مَا حسِبهْ(33)

6-الآلات الحربيـــــة: انتشرت الآلات الحربية في تلك المرحلة، وإلى جانب استعمالها في المعارك، استعملت أيضاً كمظهر من مظاهر الزينة التي تزين القصور، ومن العتاد الذي وصفه ابن حمديس السيوف والنبال والسهام، ومن ذلك قوله في وصف سيف:

قَد أرَانَا مُكَافِحُ الأُسْدِ سَيفاً حَدُّهُ فِي طَلا عِدَاهُ وَلُوجُ
فَرَأينَا في دَسْتِهِ بَحْرَ بَأسٍ مُدَّ منهُ إلى الضّرَابِ خَلِيجُ
وَحَسبنَا الفِرِنْدَ أرجُلَ نَملٍ عَبَرتْ منهُ جَدْوَلاً لايمـــوجُ (34)

وقوله في وصف الرمـــاح:

وَخَطِّيةٌ تَخْتطُّ منهم حَيَازِماً وَأَحْدَاقُهَا زرْقٌ وأجسَادُهَا حُمرُ
إذا أُشْرِعَتْ للطعن سَرَّت كأنَّما يُشكُّ بها في كلِّ سَابِقةٍ نَحـــرُ (35)

7-الخيول: ضمت قصور الحكام إصطبلات للخيول؛ وذلك لأنهم كانوا يهتمون باقتناء الخيول العربية الأصيلة، وقد نالت الخيول اهتمام الشاعر الأندلسي، وحظيت بحرصه عليها، وتفاخره بها (36) ، وقد جاءت أوصافه للخيل دقيقة حافلة بالتفاصيل، كقوله:

وَصَواهِلٍ مثلِ العَوَاسِلِ عَدوُهَا أَبَدَاً لحَربِ عَدوّكَ المَحروبِ
من كُلِّ وَردٍ ما يُشاكِلُ لونَهُ إلا تَوَردُ وَجْنَةِ المَحْبُوبِ
أو أدهَمٍ دَاجِي الإهَابِ كأنَّما صَبَغ الغُرَابَ بِلَونِهِ الغِرْبِيبِ(37)

ب-وصف ما يحيط بالقصور من حدائق :

احتوت حدائق القصور الأندلسية على أنـــواع كثيرة من الأشجار والأزهار والرياحين، وشكلت في تنسيقها لوحات أخاذة غاية في الجمال، ألهمت الشعراء، فجادت قرائحهم بكثير من المقطوعات التي تتغنى برونقها وألوانها وشذاها، ولكثافة عنايتهم بوصفها ازدهر فن وصف النوريات في الشعر الأندلسي، حتى غدا ظاهرة قائمة بذاتها، ويعود ذلك إلى أسباب عدة منها جمال طبيعة الأندلس، وكثرة زراعة الأشجار، وتشجيع الحكام للشعراء للنظم فيها (38) ، وقد كان لابن حمديس نصيب وافر من وصف تلك الحدائق والرياض والأزهار والأشجار، فهو من شعراء البلاط الذين يلازمون، الحكام ويمدحونهم، ويصفون كل ما يتعلق بحياتهم، ولاشك أن هؤلاء الحكام كانوا يتنافسون في إ ظهار قصورهم بأبهى الصور وأجملها، ومن بين وصفيات ابن حمديس قوله في إحدى الحدائق:

في حَدِيقٍ غَرَسَ الغَيثُ بِهَا عَبَقَ الأَروَاحِ موشِي البِطاحْ
تَعقِلُ الطَرفَ أزَاهِيرَ بِهِ ثُمَّ تُعطِيهِ أزَاهِيرَ صراحْ
كلُّ غُصْنٍ تَعتَرِي أَعْطَافَهُ رِعدَةَ النَّشوانِ من كأسِ اصطِباحْ(39)

وقوله في وصف روضة غناء بالخضرة والحمائم:

في رَوضَةٍ غَنَّاءَ غَنَّت بِها في قُضُبِ الأَورَاقِ وُرْقُ فِصَاح
لا يَعرِفُ النَّاظِرُ أغْصَانَهَا إذا تَثَنَّتْ من قُدُودٍ فِصَاح
كَأَنَّ مَفتُوتَ عَبِيرٍ بِهَا هُبُوبُ الرِّياحِ(40)

ومن أهم النباتات والأزهار النامية في القصور، التي وصفها ابن حمديس في ديوانه:

1- النيلوفر : يقول في وصفه مثلاً:

اشْرَبْ عَلَى بِركَةِ نيلُوفَرٍ مُحْمَرَّةِ النّوارِ خَضْرَاءِ
كَأَنَّمَا أَزْهَارُهَا أَخْرجَتْ أَلْسِنَةَ النَّارِ من الماءِ (41)

2- الســـوسن : ويقول فيه على سبيل المثال:

رَسَبَتْ بَلُجَّتِهِ النُّفُوسُ ولو طَفَتْ لِحسبتِهِ قَبلَ القِيَامةِ مَحْشَرَا
وَرَدَ النَّجِيعَ وسَوسَنٌ جَنَبَاتُهُ ثُمَّ استَقَلَّ بِهِنَّ وَرْدَاً أَحمَرَا(42).

3- النرجـــس : يقول في باقة نرجس:

وَلَيلٍ هَوتْ فيهِ نُجُومٌ كَأَنَّها يَعَاليلُ بَحرٍ مُضْمرِ الجَزْرِ في المدِّ
كَأَنَّ الثُّريَّا فيهِ بَاقَةُ نَرجِسٍ من الشَّرقِ يُهدِيهَا إلى مَغْرِبٍ مُهدِ(43).

4- الـــورد : ومما قاله في وصفه:

أَنكَرَتْ سُقمَ مُذَابِ الجَسَدِ وهو من جِنسِ عيونِ الحُرُدِ
وبَكَتْ فالدَّمعُ في وَجْنَتِها كجمَان الطَّلِّ فِي الورِدِ النَّدي(44)

5- الريحان : ومن نماذج وصفه قوله:

ورَيحَانَةٍ أمُّهَا كَرمةٌ تَنَفَّسُ في كَفّ غُصنٍ رطِيبِ
مُعَتَّقة في يَدي رَاهبٍ عَلَى دَنِّهَا خَتْمُهُ بِالصَلِيبِ (45)

6- الزهـــر: ومن وصفه إياه قوله"

ذو سَجَايا في المعالي خُلِقَتْ للوَغَى والسلمِ من بأسٍ وجُود
وأنَاةٍ أُرسيتْ في خُلُقٍ ى كنظيرِ الزَّهرِ في الرَّوضِ المَجود(46)

7- الشقائـــق: ومن إجادته في وصفها قوله:

نظرتُ إلى حُسنِ الرّيَاضِ، وغَيمُهَا جرَى دمعُهَا منهن في أعينِ الزَّهرِ
فلمْ تَرَ عَيني بينها كَشَقَائقٍ تبَلبِلُهَ الأَرواحُ في القضبِ الخضرِ
كما مشطَتْ غيدُ القيانِ شعورَهَا وقامتْ لرقصٍ في غلائلِهَا الحُمرِ(47)

8- النارنـــج: كقوله مثلاً:

بَاكر صَبوحك من سلافِ القَهوَةِ وامزجْ بِسمعكَ صِرفَها بالنَّغمةِ

وانظرْ إلى النَارنجِ في الطَّبقِ الذي أبدى تدانيَ وَجْنةٍ من وجنةِ
ومن العجَائبِ أن تُضَرَّمَ بينَنَا جمراتُ نارٍ تجتنى من جَنَّةٍ(48)

الاتجاه الرابع ـ وصف بقية المباني الأندلسية:

لم يقتصر وصف المباني عند ابن حمديس على القصور فقط، وإن كان التركيز عليها لكثافة ورودها في قصائده وغزارته، وبتتبع نتاجه الشعري تظهر عنايته بوصف المباني الأندلسية بمختلف أنواعها، من دور ومساجد وأدبية وحصون وأبراج وسجون وحمامات عامة وغيرها، حتى قال عنه صاحب نفح الطيب إنه لم يترك لغيره في وصف البرك والمباني حسناً (49) ، وقد كان للمباني الأندلسية طابعها، الخاص وشكلها المميز، فهي نتاج الشخصية الأندلسية المتفردة، التي انبثقت من امتزاج أجناس بشرية مختلفة، أتيحت لها الظروف المناسبة لكي تبدع هذه التحف المعمارية.

ومن أهم المباني التي وصفها ابن حمديس في ديوانه:

1- القصور المهجـــــورة: تناول هذا البحث في الاتجاهات السابقة وصف قصور الحكام العامرة بأهلها ، والمليئة بالحركة والنشاط، وإلى جانب هذا حوى ديوان ابن حمديس وصفا للقصور المهجورة، التي تركها أصحابها، أو أخرجوا منها، ويعد هذا من نوادر وصف القصور، ومن أمثلته وصف ابن حمديس لقصور المعتمد بن عباد، بعد أن نفاه المرابطون إلى المغرب، وفيها من الندب والرثاء والتفجع ما يؤكد حرقة الشاعر على فراق مليكه، والأماكن التي نادمه فيها، ومن نماذجه البكائية قوله:

أَمُرُ بِأَبوَابِ القُصُورِ وَأَغتَدي لِمن بانَ عنها في الضّميرِ مناجِيا
وأنشُدُ لا ما كنتُ فيهِن مُنشِداً ألا حيّ بالزرقِ الرُّسُومَ الخَواليا
وأَدعو بنِيهَأ واحِداً بعد واحدٍ ومن بعدِهم أصبحتُ همّاً مُواليَأ
وأحدَاثُ آثَارٍ إذا ما غشِتُها فَجَرتُ عليها أَدمُعي والقَوافِيا (50)

2 – الـــدور الأندلســـية: اشتهرت الدور الأندلسية بطابع معماري فريد، وطراز فني خلاب، ما جعلها أشبه بالتحف الفنية، وباتت مثار إعجاب الشعراء ا، فأشادوا بجمالها في أشعارهم، وتعمقوا في ذكر أدق تفاصيلها، وابن حمديس من الشعراء الذين برعوا في هذا الميدان، ومن ذلك قوله في وصف دار لأحد ممدوحيه، وقد شبهها في فخامتها وعظمتها بالبيت العتيق:

كَأَنَّ مَثْوَاكَ لِلبَيتِ العَتيقِ أَخٌ والیَعملاتُ إليهِ تملأُ الطُّرُقَا
تُقبِّلُ السُّحبُ منهُ للسَّحاب يداً لو أُلقِي البحرُ في معروفِهِ غَرِقَا(51)

كما يقول في وصف دار بنيت على شاطئ البحر، مصوراً فخامتها وحسنها وأنوارها التي تشع من بعيد، مشيراً أنها في جمالها تشبه القصر:

بنَى سَعدُهُ قَصراً على البحرِ سامياً فَتحسَبهُ من جَوهَرِ الحسنِ صوّرَهْ
يُنيرُ على البُعدِ ائتلافاً كأنما على الشطِّ لقى لجُّهُ منهُ جَوهَرهْ
أَبرّ على إيوانِ كسرى فلو رأى مراتِبَهُ في المُلكِ منه لأَكبرهْ(52)

ومن أمثلته أيضاً وصفه لدار عج فناؤها بالمادحين والمحتفلين:

زارَ مثواكَ وهو صبٌّ مشُوقٌ بِمعَاليكَ والمشُوقُ يزُورُ
ورَأَى في فِناءِ قصرِكَ حفلاً مالهُ في فِناءِ قصرٍ نظيرُ
تشتَري فيهِ بالمكَارمِ حمداً لَك منه تِجارةٌ لا تبور(53)

3ـ الحصـــــون والقــلاع والأبراج: من المباني التي بنيت بإتقان وبراعة وانتشرت بكثرة عند الأندلسيين الحصون والقلاع والأبراج، ذلك أنها تستخدم عندهم في حالتي السلم والحرب، فهي في الحروب معاقل تحمي من غارات العدو، وفي السلم تحف جمالية، يمضي فيها أصحابها أوقاتاً من البهجة والسرور، وقد ورد وصفها في ديوان ابن حمديس، في غير موضع، ومن نماذج وصفه للحصون قوله في بعضها:

حِصنٌ بَنَتهُ لِصَونِ المُلكِ كَاهِنَةٌ وَأُفرِغَتْ فِيهِ من تَدبِيرِهَا الحِكَمُ
كَأَنَّهُ من بُرُوجِ الجَوِ مُنفَرِدٌ فَنَظرَةٌ منهُ فَوقَ الأَرضِ تُغتَنَمُ
وأَعيُنُ الخَلقِ منهُ كلّما نَظَرَتْ عَلى العَجائِبِ بلأَلحَظِ تَزدَحِمُ
يشُمُ زَهرَ الدراري الغُرِ من كَثبٍ بينَ البُرُوجِ بِعِرنِينٍ له شمَمُ(54).

فهذا الحصن أحكم بناؤه لكي يحمي الملك ويصونه من الأعداء، وقد ارتفع بناؤه في السماء، حتى إن النظرة منه للأرض تعد غنيمة، وهو محل إعجاب في أعين الناس، الذي يصوبون أنظارهم نحوه إعجاباً وإجلالاً، ومن أوصافه للأبراج قوله في وصف أحدها:

أَنْشأتَ شَوَانِي طَائرةً وَبَنيتَ عَلى ماءٍ مُدُنا

بِبُروجِ قِتَالٍ تحسَبُها في شُمّ شَواهِقِها قُنَنَاً
ترمِي بِبروجٍ إن ظَهَرتْ لِعدوٍ مُحرِقَةً بطَنَاً
ضَمنَ التّوفيقُ لها ظَفَراً من هُلكِ عداتِكَ ما ضمناه (55)

4ـ دور العبادة: كان المجتمع الأندلسي من أكثر المجتمعات تسامحاً وتآلفاً بين أطيافه المختلفة، ومن ثم شاعت فيه حرية العبادة والاعتقاد، ولم يكن هناك اضطهاد لأية طائفة، وقد أدى هذا لانتشار دور العبادة المختلفة لكل الأديان، وقد وثق ابن حمديس بعض هذه العمائر من خلال وصفه لهذه الدور والمساجد والأديرة، مضفياً عليها تفاصيلها المخصوصة بها ، وبالشعائر اللازمة فيها، ومن ذلك مثلاً وصفه لمسجد أوان إقامة صلاة عيد الأضحى؛ إذ قال:

وردَ المُصلّى في جلالِ معظّمٍ ووقَارِ مُحتَشِمٍ وسمتِ مُنيبِ
صورٌ خلعنَ على المَواتِ فخيلتْ فيهَأ الحياةَ بسورةٍ ووثُوبِ
صَلّيتَ ثم قفوتَ ملةَ أحمدٍ في نحرِ كلّ نجِبةٍ ونجِيبِ
من كلِّ مرتَفعِ السّنامِ تحمّلتْ فيهِ المُدَى بالفَري والتّرغِيبِ(56)

ومن متعلقات المساجد التي لاقت استحسان الشعراء، الثريات التي تتدلى بفخامة من سقوفها، ومن ذلك مثلاً وصفه لإحداها، مشبهاً إياها بالكواكب المتلألئة في بروج السماء، إذ يقول:

ومُشبِهةٍ في الجوّ أنوارَ أُختِهَأ يضيءُ سَناهَأ كلَّ أَسحَمَ داجِ
كأنّ صلالاً وسطَها في مَكَامنٍ تحرّكُ فيها ألسناً بلجاجِ
وتحسبُها تَجلُو على كلِّ ناظِرٍ كواكِبَ نارٍ في بروجِ زُجَاجِ(57)

أما الأديرة، فيقول في وصف دير:

وراهِبةٍ أغلقَتْ ديرَها فكُنا مع الليلِ زوّارَهَأ
هدَانَأ إليها شذَى قَهوَةٍ تُذِيعُ لأنفِكَ أَسرَارَهَأ
وقَدْ سَكَنتْ حَرَكاتُ الأسى قيانٌ تُحرّكُ أَوتَارَها
وقُضب من الشَّمعِ مُصفرَّة تُريكَ من النارِ نوّارها(58)

5. الســـــجون: تتبدى السجون بشكل جلي في أشعار الأندلسيين؛ لما تكتسبه من رمزية تحقيق العدالة والإنصاف، خاصة في حقب الصراع السياسي، التي تشهدها

البلاد إبان عهد ملوك الطوائف، فقد شهدت هذه المرحلة العديد من الصراعات السياسية، والحروب الداخلية والخارجية، وقد ورد وصف السجون في شعر ابن حمديس، ومن ذلك قوله مثلاً:

لئِن كنتَ مَقصُوراً بِدارٍ عمَرتَهَا فقد يُقصَرُ الضرغَامُ وهو هصُورُ
أَغرّ الأسارَى أن يُقَالَ محمّدٌ غَريبٌ بأَرضِ المَغرِبينِ أَسيرُ
تَنافس من أغلالِها في فكاكِها ويُقصمُ منها بالمصَابِ ذكورُ
وكنتَ مسجى بالظِبا من سجونِها بسورٍ لها إنّ السجُونَ قُبُورُ(59)

6- الحمامات العامـــة : من المباني التي انتشرت في الأندلس الحمامات العامة، التي يقصدها المسافرون وعابرو السبيل، وهي من مظاهر الحضارة التي عرفها المجتمع الأندلسي، وكان لابد الشعراء أن يعرجوا عليها، فيقدموا وصفاً لمعمارها وروادها، وكان لابن حمديس أشعار في وصف الحمامات، وإن لم تكن مدعاة للفخر والرضا دوماً، ومن المقطوعات التي ذم فيها حماماً عاماً ذاكراً مساوئه قوله:

وحمّامٍ سوء وخيمِ الهواءِ قليلِ المياهِ كثيرِ الزّحامِ
فما للقيامِ قعُودٌ بهِ ولا للقعُودِ بهِ من قِيامِ
ذكَرتُ بهِ النّارَ حتى لقدْ تخيّلتُ إيقَادَهَا في عظامي
فيارب عفوكَ عن مذنبٍ يخافُ لقاءكَ بعد الحِمامِ(60)

الخاتمة :

قامت هذه الدراسة بتسليط الضوء على وصف المعمار الأندلسي في عهد ملوك الطوائف، متخذة من الشاعر ابن حمديس أنموذجاً لتتبع هذا الفن، الذي شاع في الشعر الأندلسي الأندلسي وشكل ظاهرة تستحق الدراسة وقد حاولت هذه الدراسة إبراز أشعار ابن حمديس التي قالها في وصف القصور المباني بمختلف أنواعها وقد توصلت هذه الدراسة إلى النتائج التالية:

1- كان ابن حمديس من الشعراء الذين لازموا بلاط الأمراء والسلاطين، وهذا أسهم في ازدهار فن الوصف عنده، فمن مكملات الوصف عند شعراء المدح، إبراز المنجزات الحضارية لممدوحيهم، من قصور ومبان وعمائر مختلفة.

2- يعد ابن حمديس من أبرز الشعراء في غرض الوصف، ولاسيما وصف المباني.

3- لم يكتفِ ابن حمديس بالقصائد والمقطوعات المستقلة التي خصصها للوصف، بل نرى الوصف حاضراً في أكثر قصائده وأغراضه الأخرى.

4- أفاض ابن حمديس في وصف القصور بكل تفاصيلها الداخلية والخارجية.

5- من الأشياء الملاحظة في شعر ابن حمديس تشخيصه للطبيعة، أي إعطاؤها صفة الحياة وإسباغ المشاعر والأحاسيس عليها.

6- كان للبيئة أثرها في شعر ابن حمديس بداية بصقلية مسقط رأسه ثم الأندلس، وقد عرفت كلتاهما بالجمال الأخاذ والطبيعة الفاتنة والتضاريس الساحرة الجذابة ، وقد انعكس هذا على شعر ابن حمديس، وأسهم في ازدهار فن الوصف عنده.

الهوامـــــــــش :

1.عبدالعزيز، عتيق 1976م ،الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، ص313.
2.ابن خلكان وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، 3/ 2972، تحقيق : إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ، ص212.
3- ابن حمديس الديوان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ص3.
4.جودت الركابي، 1966م، في الأدب الأندلسي، الطبعة الثانية ، دار المعارف مصر،ص101.
5.سعد إسماعيل شلبي، 1978م، البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر، د. سعد إسماعيل شلبي، دار نهضة مصر، ص78.
6.محمد عبدالمنعم خفاجي1992م، الأدب الأندلسي (التطور والتجديد)، دار الجيل بيروت، الطبعة الأولى، ص787.
7.ابن خلكان، وفيات الأعيان ج3، مرجع سابق، المجلد الثالث،ص315.
8.ألفاظ البيئة الطبيعية في شعر ابن حمديس، 2007، رأفت محمد سعد، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الدراسات العليا ، جامعة النجاح نابلس ، فلسطين ص9.
9..ابن حميس الديوان، مصدر سابق، ص4.
10شلبي ألفاظ البيئة الطبيعية، مرجع سابق، ص11.
11.ابن حمديس الديوان، مصدر سابق، ص287.
12.علي مصطفى المصراتي 1972م ، ابن حمديس الصقلي، دار مكتبة الفكر طرابلس ، ص8.
13.رأفت محمد سعد، ألفاظ البيئة الطبيعية في شعر ابن حمديس ، مرجع سابق، ص17.
14.الديوان، مرجع سابق، ص33.
15شلبي البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر، مرجع سابق، ص459.
16جمانة محمد عزمي القصور في الشعر الأندلسي(عصر ملوك الطوائف)، 2011 رسالة ماجستير، عمادة الدراسات، جامعة الخليل، فلسطين. ص23
17-جمانة محمد عزمي، القصور في الشعر الأندلسي، المرجع السابق، ص23.
18.المقري نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري، ج2، 1949م، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، الطبعة الأولى ، ص40،39.
19.ابن حمديس الديوان، مصدر سابق، ص546،545.
20.ابن حمديس الديوان، مصدر سابق، ص495
21..ابن حمديس الديوان، مصدر سابق، ص378.
22..سورة طه، آية 12.

23.ابن حمديس الديوان، مصدر سابق، ص546.
24.سورة الملك، الآية 4.
25.ابن حمديس الديوان، مصدر سابق، ص548.
26ابن حمديس الديوان، مصدر سابق،ص548
27.ابن حمديس الديوان، مصدر سابق ص 548.
28ابن حمديس الديوان، مصدر سابق،ص547.
29.بن حمديس الديوان، مصدر سابق، ص547.
30.ابن حمديس الديوان، مصدر سابق، ص496.
31.ابن حمديس الديوان، مصدر سابق، ص494، 496.
32.جمانة محمد سعد، القصور في الشعر الأندلسي، مرجع سابق، ص49.
33.جودت الركابي، في الأدب الأندلسي، مرجع سابق، ص100
34.ابن حمديس الديوان، مصدر سابق، ص٣١١.
35.ابن حمديس الديوان، مصدر سابق، ص24.
36.ابن حمديس الديوان، مصدر سابق، ص243
37ابن حمديس الديوان، مصدر سابق، ص243.
38. ابن حمديس الديوان، مصدر سابق، ص.99
39.ابن حمديس الديوان، مصدر سابق، ص20
40.ابن حمديس الديوان، مصدر سابق، ص77.
41.ابن حمديس الديوان، مصدر سابق، ص: 252- 253.
42- .جمانة محمد عزمي، القصور في الشعر الأندلسي مرجع سابق،ص57
43- ابن حمديس ،الديوان، مصدر سابق، ص61
44.جمانة محمد عزمي القصور في الشعر الأندلسي، مرجع سابق 38
45.ابن حمديس الديوان، مصدر سابق ص48
46- ابن حمديس الديوان، مصدر سابق، ص90.
47 ابن حمديس الديوان مصدر سابق، ص5.
48- ابن حمديس الديوان، مصدر سابق، ص235.
49- ابن حمديس الديوان، مصدر سابق، ص150.
50- ابن حمديس الديوان، مصدر سابق ص138.
51- ابن حمديس الديوان، مصدر سابق ص12
52 - ابن حمديس الديوان ،مصدر سابق ص156
53- ابن حمديس الديوان، مصدر سابق ص192.
54- ابن حمديس الديوان، مصدر سابق ص69.
55- المقري، نفح الطيب ج2، مصدرسابق ،ص40.
56 - ابن حمديس، الديوان، مصدر سابق، ص 533.
57 - ابن حمديس، الديوان، مصدر سابق ص 359.
58 - ابن حمديس، الديوان، مصدر سابق ص 244.
59 - ابن حمديس، الديوان، مصدر سابق ص 284.
60 - ابن حمديس، الديوان، مصدر سابق ص 464.